

أدوار البشر في المخطط الإلهي

"إذا بملاك الربّ ظهر ليوسف في الحلم قائلاً، قم فخذ الصبي وأمه واهرب...
فإن هيرودس مزعم أن يطلب الصبي ليهلكه"

في الأحد الذي بعد الميلاد نتلو هذا النصّ الإنجيلي، والذي يظهر فيه على الفور أن حضور المسيح صار مهدداً. فمن اللحظات الأولى للميلاد يلاقي مجيء الربّ مقاوماتٍ عدائية. منذ ميلاد يسوع وبدء تحقيق المخطط الإلهي المحب للبشر تظهر محاولاتٌ بشريةٌ لإبطاله. صلب يسوع انتهى بالصليب لكنّه بدأ من الميلاد. حُكم عليه من مهده أن يهرب مع أمه ويوسف إلى مصر. لا تسلك كلّ حقيقةٍ في عالمنا طرقها بالسهولة أو بالحتمة. النور سيغلب الظلمة لكن الثمن ليس مجاناً، فعالمتنا المليء بالشروء البشرية والنوايا المختلفة ليس دائماً العالم الموافق، وهذا ما يدفعنا إلى الإيمان بالحقّ بعد التضحيات.

وفي هذا النصّ الإنجيلي تظهر ثلاثة مواقف مختلفة من البشر تجاه ميلاد يسوع، فهناك العذراء وهناك يوسف الخطيب وأيضاً هيرودس. وهم يمثّلون كلّ الاحتمالات البشرية تجاه المخطط الإلهي. فيوسف الخطيب، إنسان بارّ متقدّم بالسن، ظهر له الملاك وأخبره عن مريم قائلاً له، لا تخف أن تأخذها فالمولود منها هو من الروح القدس. وهنا يعود ويظهر له قائلاً: "قم خذ الصبي واهرب به مع أمه إلى مصر". هذه الشخصية الصامتة تمثّل لنا نموذج الطاعة للكلمة الإلهية. إنّها المجموعة من الناس التي تكون دائماً في خدمة الإرادة الإلهية عندما يُطلب منها. هؤلاء الناس الذين يصغون إلى الكلمة ويعملونها بحمّة وطاعة، الذين يعرفون البرّ بالطاعة. وهم مستعدون أن يضعوا حياتهم كلّها حين تُطلب منهم. والكلمة الإلهية والحقيقة تجدان دائماً في هؤلاء الحماية والأرض الصالحة.

هناك مجموعة أخرى من الناس، يعرفون البرّ ليس في تقبّله أو حمايته أو طاعته فقط، وإتّما في خلقه والبشارة به، كالعذراء مريم التي أعطت كلّ الحياة من أجل الكلمة. هناك درجة من الإيمان لا تكفي بالطاعة وإتّما تطلب قبل أن يُطلب منها وتسعى قبل أن يُسعى إليها. هذه النوعية من الإيمان لا تحافظ على الحقّ وإتّما تلدّه. يطيب لكثيرين أن يبشروا وليس فقط أن يقبلوا. لا يدافعون عن الحقّ حين يُضطهد وإتّما يتكرسون للحقّ حتّى يوجد. ليسوا إناءً يحفظ ولكنّهم إناء مصطفي يحملون طيب المسيح إلى جميع الأمم. هؤلاء يساهمون أكثر في نشر الكلمة.

وهيرودس يمثّل التيارات العدائية التي مصالحها لا تتقبل النور وتحب الظلمة، ولا يوافقها الحقّ لأنّ أعمالها توبّخ منه. هؤلاء يسعون كلّ بطريقته إلى قتل صورة الحبّ والتضحية فيهم وفي العالم لتبرير أعمال الظلمة. وأشكال هيرودس عديدة ولا يخلو زمن منها. يوحنا الحبيب يقول "إن سرّ الضلال حاضر".

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو ما مصير المخطط الإلهيّ أمام كلّ هذه المواقف الحرّة والمتنوعة من البشر؟ فإذا كان في زمن هيرودس يوسف فهل غيابه في زمن آخر يعني ضياع الحقّ؟ يرسم سفر الرؤيا صورة هذا النصّ تماماً، كما يجيب على هذا السؤال. فالرؤيا تخبرنا عن امرأة ما أن ولدت ابنها البكر حتّى جاء التنين ليقتله، لكن الأرض ساعدتها وهربت المرأة إلى البرية وأعالمت ابنها. كما يخبرنا السفر أن هذا الابن هو الخروف الذبيح والمنتصر. كتاب الرؤيا يفسّر لنا أمرين. الأمر الأوّل هو نهاية التاريخ، وهي ما عبّر عنه يسوع "ثقوا إني غلبت العالم". والأمر الثاني هو أن حضرة الربّ يسوع الحقّ في العالم من جهة، وحرية كلّ إنسان وحياته من جهة ثانية، هما حدثان يفصلان الجداء عن الخراف. إنّ مسيرة الحضرة الإلهية في التاريخ صارت خطأً فاصلاً بين حزب اليمين وحزب اليسار.

يوضح النصّ الإنجيليّ أنّه في الزمن الذي وُجدت فيه العذراء، بالوقت ذاته كان هيرودس. والله يتدخل دون أن يقسر حرية أي إنسان، لا بالضغط على عذراء ولا بقهر أي هيرودس، بحيث يجعل تحقيق المخطط الإلهيّ يستمر. لكن تحقيق هذا المخطط وحضور الله صاراً دينونة لذاك وتبريراً وقداسة

ليوسف والعذراء. التاريخ يسير، دون إلغاء حرية أي إنسان، إلى نصر الحمل والطفل المولود اليوم، لكن هذا لا يتحقق بقسر البشر. فالرب يسوع انتظر في مصر إلى أن مات طالب نفسه.

إن حكمة الله وحبّه للإنسان لا تُقهران من الخيارات البشرية الخاطئة، ولكنّه بالوقت ذاته هما حكمة وحبّ لا يقهران آية رغبة إنسانية. الله كلي القدرة، ومخططه المحب للبشر يسير إلى نهايته الصالحة، لكن بشكل إسختولوجي وليس بالقسر. لقد "جاء النور إلى الظلمة والظلمة لم تدركه".

كلنا نتأرجح بين هذه الدرجات الثلاث من الإيمان. فإما أن نكون من خدام الكلمة بالبشارة، أو من قابليها وحافظيها بالطاعة أو أحياناً من رافضيها. الحكمة الإلهية تسلك بالحب بين كل هذه الخيارات إلى تحقيق ما في الحب الإلهي من مخطط. لقد وُلد يسوع ولكن مات هيروودس. لقد بدأ صليب يسوع من ولادته ولكن القيامة حاصلة.

هذه الحقيقة اليوم في الميلاد تدفعنا برحاء قويّ ألا نكون في الحياد أمام دخول السيّد إلى العالم. لا نهاب قساوة التيارات أو العوامل التي ضد الإيمان، ونحيا متحركين أمام أحداث الخلاص. الميلاد حدث يستحق جواباً ويلغي كل برودة أو فتور. فالآتي مُضطهدٌ ولكلّ منا دور في حمايته أو البشارة به وإلا صار سبباً لقوة قاتليه.

"قم خذ الصبي..."، هذه العبارة إن لم نتأمل بها بحريتنا قبل أن نسمعها، علينا أن نطيعها الآن حين نقرأها. آمين

